النقد التفسيري لدلالة المفردة القرآنية
عند الإمام الحسن بن علي (عليه السلام)

ا.م.د. سيروان عبد الزهرة الجنابي
كلية الفقه/ جامعة الكوفة

الخلاصة:

إذا كانت جدليةُ العقلِ (الـمُستَثْمِر) والنصِّ القرآنيِّ (ميدان الاستثمار الدلالي) تتسم بسمة التواصل والديمومة بناءً على حاجة العقل واكتناز النص؛ إذ غالباً ما يلجأ العقلُ الإنساني إلى الغوص في جوف التعبير المقدس لاستنباط حلٍّ لمشكل خارجي أو لاستلهام منطق سلوكي يُقوِّم منظومة الأداء التعاملي للإنسان سواء أكان مع خالقه أم مع نظيره الآخر أو مع نفسه ذاتاً، فإنَّه لابد –والحال هذه– من أنْ يتأمّل في النص السماوي ويطيل النظر حتّى يتسنى له أنْ يقتنصَ المطلبَ الدلالي الذي يبتغيه؛ من هنا كانت الحاجة إلى تفسير النص والتَّعرف إلى معناه سمة افتقاريه لدى الإنسان وصفة اثرائية لدى النص؛ لهذا يمكن أنْ يُقالَ بأنَّ النص هو الداعمُ للإنسان والـمُموِّلُ له من اجل قيمومة الحياة وصولاً إلى منطق الأنموذج الاسمى الذي تبتغيه السماء من الإنسان، وعليه يعدُّ التفسير حاجة أصل يسعى العقل البشري إلى تحقيقها من النص القرآني؛ غير أنَّ هذا (التحقيق) لا يكفي ما لم يشتمل على عامل (التَّحقُّق) من النتاج الدلالي (التفسيري) الـمُستَنْبَط من النص؛ إذ ليست الغاية هي البحث عن المضمون الاكتنازي في التعبير المقدس فحسب بقدر ما تتكامل الغاية في التَّحقُّق من مدى صحة هذا المضمون ومدى مصداقية استنباطه من النص؛ فالغاية من التفسير ليست أدائية بقدر ما هي غائية تَحقُّقية؛ لأنَّ فهمَ ذلك النص منطقٌ أصلٌ لفهم الحياة الإنسانية نفسها؛ فإذا كان النتاج المضموني الـمُستَنْبَط من النص القرآني صحيحاً كان فهم الحياة وكيفيات التعامل فيها موافقاً لصحة المضمون الـمُستَنْبَط بالمحصلة والحال هذه؛ من

هنا احتيج إلى عامل التَّحقُّق من النتاج المستخرج من النص بالضرورة والإلزام بحكم الغاية المنشودة منه.

إذ ليس كل نتاج تفسيري مُستَخرَج من آية ما يُمكن أنْ ينظرَ إليه على أنَّه نتاج دلالي صحيح أو محصلة مضمونية راجحة لتلك الآية موضع الأداء التفسيري؛ ذلك بأنَّ العقل التفسيري قد تبدرُ منه شطحةٌ هنا أو تُمسَك عليه زلةٌ هناك؛ ولهذا احتاجت هذه الشطحة وتلك الزلة إلى تقويم ومعالجة تحقُّقية لدلالة النص؛ وهذا ما يمكن أن نطلق عليه بـ (النقد التفسيري) أو حيثية (التوجيه التفسيري)؛ من هنا وجَبَ التَّحقُّق من النتاج الدلالي للآية لا الاكتفاء بمجرد تفسيرها ومنحها معنى فحسب؛ وتأسيساً على تحقيق هذا الاتجاه كانت للإمام الحسن بن علي (عليه السلام) إسهاماتٌ توجيهيةٌ في نطاق منطق النقد التفسيري والتسديد الدلالي للنص القرآني مضموناً وكانت تلك المسارات التسديدية للبيان النصي غاية في الروعة الاستنباطية والإحكام الدلالي المُستَخرَج؛ وحقَّ له ذلك تأسيساً على أنَّه (عليه السلام) من جنس الذي عناهم الله سبحانه بقوله تعالى ((فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)) ، فلما كان الإمام من الذي خصَّهم الله سبحانه بالتكليف السماوي لتفسير كتابه المعجز وَجَبَ – والحال هذه– أن يوجِّه المنطق التفسيري للنص وجهته الحقة ويصحِّح المسار الدلالي غير السديد إلى منحاه السديد والأرجح على وجه الإطلاق.

وبهذا تعد مهمة الإمام ليس إبانة النص المعجز فحسب؛ بل تقتضي مهمته بالملازمة تقويم ما فهمه الناس من دلالة غير قويمه لذلك النص؛ ذلك بانَّ هذا التقويم يعد جزءاً من إيصال المتلقي إلى غاية التفسير المنشودة وهي الدلالة الصحيحة؛ لأنه يوقف المتلقي (الساعي وراء فهم دلالة النص) أو المُفسِّر (المتصدي لإبانة معنى النص) على الدلالة الأمثل للنص صراحةً.

واستجابةً لهذا الفريضة سينهض هذا الجهد العلمي على رصد التوجيهات التفسيرية التي أدلى بها الإمام في نطاق التفسير الدلالي للنصوص القرآنية، مع لِحاظ المنطلقات التي اعتمدها الإمام الحسن (عليه السلام) في توجيهاته هذه؛ ذلك بأنَّ التقويم الدلالي أو ما يمكن أنْ يُسمى بـ (تنقية دلالة النص) له حاجة إلى مجموعة من الضوابط والأسس التي يقوم عليها حتّى يتوصل الإمام إلى الدلالة النقية والمعنى المُصَفّى الذي ينسجم مع المراد الإلهي من الآية الكريمة؛ فلا دلالة راجحة أو مضمون أمثل يمكن أنْ يُقال به ما لم يعتمد على منطق سديد رصين يقنع المتلقي بأنَّه الأمثل وسيلةً والأولى نتاجاً ومحصلةً.